أبو العـــلاء المعرى

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى

— ٢ —

عبقرية عربية نثرت فبهرت ، ونظمت فعجّبت ، وفكّرت فحيّرت ، وأبدعت وتفننت[1] إذ قالت وألّفت فأدهشت . وعلمُها فى كل فن من فنون اللغة علمُ إحاطة[2] ، علمُ الحفيّ[3] المحيط لا العالم النُّتَفَة[4] . وإذا لم ترَ (الأيك والفصون) — وهو نحو من مئة جزء — وغير الأيك والفصون ، ومؤلفات الشيخ كثير[5] فقد رأينا المطبوعات المعروفات ، واستدللنا بما حضر على ما غاب ، ولم نستبعد ماروى ابن القارح فى رسالته : « الشيخ بالنحو أعلم من سيبويه ، وباللغة والعروض من الخليل » ووجدنا ابن القارح هذا من المقتصدين حين يقول :

« . . . لقد سمعت من رسائله عقائل لفظ ، إن نعتها فقد عبتُها ، وإن وصفتُها فما أنصفتُها . وأطربتنى (يشهد الله) إطراب السماع . وبالله لو صدرت عن صدرٍ مَن خزانتهُ وكتبه حوله يقلب طرفه فى هذا ، ويرجع إلى هذا . . . لكان عجيباً صعباً شديداً . ووالله لقد رأيت علماء ، منهم ابن خالويه ، اذا قرئت عليهم الكتب ولاسيما الكبار رجعوا إلى أصولهم كالفاليين يتحفظون من سهو وتصحيف وغلط . والعجبُ العجيب والنادر الغريب حفظُه لأسماء الرجال[6] والمنثور كحفظ غيره من الأذكياء المبرزين المنظوم . وهذا سهل بالقول ، صعب بالفعل ، من سمعه طمع فيه ، ومن رامه امتنعت عليه معانيه ومبانيه »

وإنى لأقول : إنه لمن النادر الغريب أن يحتاز الأديب عبقرية نثرية ، وعبقرية شعرية ، كما احتاز هذا الشيخ . واذا كانت الاجادة لا تتفق فى فنى المنظوم والمنثور معا إلا للأقل — كما قال ابن خلدون — فكيف حال العبقرية ؟ وهذان الشاعران العبقريان أبو تمام والمتنبي لم ترو لنا كتب الأدب والسير من نثرهما الا رسالة قصيرة للأول سطرها البديعى فى (هبة الأيام) ، ورسالة أقصر منها للثانى أوردها ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » . وأما البحترى المسكين[1] . فكان لا يستطيع أن يخط فى النثر سطراً ، واذا خاطب أحداً فى شأن وجه اليه شعرا . قال الشيخ فى إحدى رسائله : « رُوى أن البحترى كان لا يقدر على كتب رقعة ، فيجعل المنظوم عوضاً عن المنثور » .

وأليةً محلوفة بالقرآن وإعجازه ، لو أن هؤلاء الشعراء الثلاثة ، وهم عند ابن الأثير وغير ابن الأثير أشعر العرب « هؤلاء لات الشعر وعزاه ومناته ، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته[2] » مشوا فى عُرُض « العروض » المتشعبة ، ومناحى « النحو » المتفرقة المتصعبة ، كما مشى الشيخ ، وتقبوا مثلما نقب ، واستظهروا من مقالات الفلاسفة والمتكلمين ومصنفات الفقهاء وأهل النحل بعض ما استظهر — لأجبلوا إجبالا[3] أو غثّ كلامهم أو جاؤا فى القريض قرازيم[4] . لكن عبقرية الشيخ قوية جنية قد تسيطرت على كل فن ، ولم يسيطر عليها فن ، ولم ينزل نظيمها ونثيرها من عليائهما فى وقت ، ولم تتبدل لهما ديباجة أو بهجة .

---

(١) لم يجد أستاذ هذه اللفظة فى « القاموس المحيط » فارجع إلى تخطئتها . وهى فى كلام الأدباء الكبار وكلام الأئمة . وفى كتب اللغة المشهورة مثل الصحاح والأساس ، واللسان والتاج

(٢) علمه علم إحاطة إذا علمه من جميع وجوهه لم يفته منه شىء .

(٣) الحفى : الذى يتعلم الشىء باستقصاء .

(٤) النتفة : الذى يلتقف من العلم شيئاً ولا يستقصيه . وكان أبو عبيدة يقول فى الأصمعى : ذاك رجل نتفة .

(٥) قالوا : إنها مئة مجلد .

(٦) رسالة أبى العلاء إلى أبى القاسم بن سبيكة يعزيه باخيه — تؤيد قول ابن القارح .

(١) بكسر الميم . فى « رسالة الملائكة » لأبى العلاء : الفراء قد حكى مسكين بفتح الميم فى كتاب التثنية والجمع . وحكى أبو مسحل منديل فى منديل ، وهذه نوادر لا يطرد عليها القياس .

(٢) ابن الأثير فى كتابه « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » ومن قوله فى ذلك فيهم : المذهب عندى فى تفضيل الشعراء أن المرزدق وجريرا والأخطل أشعر العرب أولا وآخرا ، وأشعر منهم عندى الثلاثة المتأخرون وهم أبو تمام وأبو عبادة وأبو الطيب فان هؤلاء الثلاثة لايدانيهم مداني فى طبقة الشعراء . وروى فى كتابه هذا الوصف الموجز البليغ الرضى فى الثلاثة وهو : أما أبو تمام فخطيب مفوه ، وأما البحترى فواصف جؤذر ، وأما المتنبى فقائد عسكر

(٣) اجبل الشاعر : أفحم

(٤) القرزام : الشاعر الفحل ، وهو يقرزم شعره يجوده به ردىء .

إذا قال أبو الطيب :

ما به قتـــل أعاديه ولـكن يتقى إخلاف ما ترجو الذئاب

فنطّ وشطّ وبدت « فاعلن » فى العروض « فاعلاتن » فى حين أن المتنبىء — كما قال الشيخ — : « كان شديد التفقد لما ينطق به من الكلام ؛ يغيّر الكلمة بعد أن تُروى عنه ، ويفر من الضرورة وإن جذبه اليها الوزن » . (١)

وإذا قال « الوليد » البحترى :

وكأنّ الأيام أوثر بالحسن (م) عليها يوم المهرجان الكبير (٢)

فكسر وجاء نقص من الزيادة .

وإذا قال حبيب بن أوس :

بالقائم الثامن المستخلف اتطأدت قواعد الملك ممتدًا لها الطوَل (٣)

فنهور (٤) البيت فى اللغة بـ « اتطأدت » ولم يتطد .

إذا جازف فى اللغة المجازفون ، وطفف المطففون « ويلٌ للمطففين » فعند الشيخ الموازين القسط ، عنده القسطاس المستقيم ، وميزان الصيدلانى (٥) الحكيم .

« موازينُ صدقٍ ، كلُّها غير عائل (٦) »

* * *

نثر أبو العلاء مترسلا ومسجعاً ، فبذ الناثرين فى وقته ومن بعده كلهم أجمعين ، وشعُر فتبدى (٧) فى سماء القريض شمساً علائية لا تأفل ما كان القرآن ، وكان هذا اللسان المبين (١) .

ولقد أصاب الشيخ وأطاب (٢) حين حاش فى رسائله ودواوينه وكتبه الكلمات الغريبات ، فجمع نادّات شاردات لم تر كثيراً منهن فى معجم من المعجمات . وإن عربيات قديمات نشأن فى « الجزيرة » مع أخوات لهن — لحريات أن يظهرن وأن يعرفن . وقد برع أبو العلاء إذ نصّ تلك الغرائب فى حلل عدنيات (٣) من العبارات كأنهن عرائس قعدن فوق منصات . ولأن تجتاف لفظة غريبة جملة أو بيتاً خير من أن توحد (٤) . ولكل لغوى فى التصنيف نمط . وإذا أحسن المعرى فقد أجاد ابن سيده ، وأجاد الجوهرى وابن دريد .

* * *

لم يكن الشيخ من العبقريين الملهمين ، بل كان من العبقريين الدارين المدركين ، تعلم واستعلم فعلم ، وسأل واستفهم ففهم . وللقائل الملهم حال ، وللدارس حال ، ولذاك وحى ، ولهذا مقال . والوحى لا يحصّل ، ولا يؤازيه مؤاز .

وقد استهام الشيخ بلغة العرب ، وكان متمناه فى دنياه أو مرجاه (٥) الأسمى أو مثله الأعلى أن يتبحر فيها وفى علومها

(١) رسالة أبى العلاء إلى أبى الحسين أحمد بن عثمان النكى البصرى.

(٢) يراجع « الموشح » للمرزبانى ، وذكر الشيخ فى رسالته إلى النكى أن البحترى كسر فى قوله :

ولماذا تتبع النفس منه شيئا جعل الله الفردوس منه جزاء .

« قلت » : رواية البيت فى ديوانه المطبوع فى بيروت هى .

ولماذا تتبع النفس شيئا يجعل الله الفردوس منه جزاء .

(٣) يراجع « المثل السائر » : النوع الأول معرفة علم العربية من النحو والتصريف

« قلت » فى الديوان المطبوع فى بيروت : « اعتدلت » مكان « اتطأدت » واليقين أن ناسخا قديما أراد إصلاح الكلمة ، ولو اطلع حبيب على ما جاء به هذا الورق أو الناسخ لصح وضح ، وآثر خطأه على هذا الاصلاح ، وأين كلمة من كلة ؟ . . .

(٤) نهور : انهدم

(٥) الصيدلانى والصيدنانى منسوبان إلى الصيدل والصيدن وهما أصول الأشياء وجواهرها ، والنون للمبالغة « الفائق » .

(٦) عائل : مائل .

(٧) تبدى : ظهر ، و « تبدى » بمعنى الظهور فى المفضليات والأصمعيات وحماسة أبى تمام وحماسة البحترى والأمالى ورسالة الغفران وديوان المعانى وكتب كثيرة . فتقدان اللفظة فى مثل اللسان والتاج وسائر المعجمات المطبوعة المشهورة — شىء عجب .

(١) فى كتاب « إحكام صنعة الكلام لمحمد بن عبد الغفور الكلاعى الوزير الأديب الأندلسى » :

« . . . وشأن أبى العلاء عظيم ، وحكم نقدة الكلام أنه لم يكن فى صنعة النثر مثله لا قبله ولا بعده إلا ما كان من أبى الطيب فى الشعر وحده » . وكتاب « إحكام صنعة الكلام » مخطوطة فى خزانة العلامة الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب الصادقى الوزير التونسى

روى صاحب « أوج التحرى » هذه الأبيات الثلاثة للنازى الوزير الشاعر فى مدح أبى العلاء :

لله لؤلؤ ألفاظ تناقطها لو كن للغيد ما استأنسن بالعطل

ومن عيون معان لو كحلن بها نجل العيون لأغناها عن الكحل

سحر من اللفظ لو دارت سلافته على الزمان لمحى مثبة الخجل

(٢) أطاب : جاد بشىء طيب .

(٣) عليه عدنيات : أى ثياب كريمة ، واصلها النسبة إلى عدن ، يقول : مرت جوار مدنيات عليهن رياط عدنيات « الأساس » .

(٤) وحد الشىء : صار على حدته

(٥) مرجاه : مصدر ميمى . قال المتنبى :

ما لمن ينصب الحبائل فى الأرض م ومرجاه أن يصيد الهلالا

فى نسخة « ديوان (أبى الطيب المتنبى) الباهر : المخففة التى أظهرها وحققها العلامة الدكتور عبد الوهاب عزام :

« جنى : فى الحاشية : سألته عن مرجاه من أين لك ؟ فقال : قلتها بالطبع ثم وجدتها فى شعر الأعشى »

قلت : السائل ابن جنى والمجيب المتنبى : ومعنى أنها فى البيت « رجاه » لا « مرجاه » . يوزن مسعاة كما روى وفسر الكبرى فى شرح الديوان . وواو الجمال وجزالة الكلام تدفعان مرجاة هنا

فنبغ ، وبلغ حيث بلغ . فهَوِيُّه [١] هو هذه اللغة ، وفنونُ زمانه التي شاء عرفانها هُنَّ للهوى تبع .

وإذا تمادى الشيخ في إعجابه بالعرب الأقدمين ، وتطرّبه سجعُ محدثين مسجعين مقلّد ، فقد افتن في تقليده واجتهد ، فمد في الشعراء والكاتبين من المبدعين . وتذرع أبو العلاء بالله وتحاميده وتماجيده فنظم « اللزوميات » وصاغ أوحاك « الفصول والغايات » والمقاصدُ لغوية لا ألهانية [٢] لا دينية ، وان اشتملت على أشياء منوعات ، ملونات ، مهولات [٣] فقد بدت مثل « صندوق العجب . . » وما كان يغرب حين يغرب حتى يعمّى مقالة ، ولكن ليعلن قدرة وبراعة . وكيف يكفر معنى قصده وقد أصحبه شرحَ الغريب من ألفاظه ؟

ومؤلفات الشيخ العبقرية هن بنات القصد والتكلف وبنات الأثرية .

« ... وقد تكلفت في هذا التأليف — يعني الشيخ اللزوميات — ثلاث كلف ، الاولى أن ينتظم حروفَ المعجم عن آخرها . والثانية أن يجيء رويه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك والثالثة انه لزم مع كل روى فيه شيء لا يلزم من باء أو تاء أو غير ذلك من الحروف » .

ولو لم يجب الشيخ داعي أثريته ، ويحقق قوله في لاميته ، ويقصد ويتكلف ما كانت أمثال « اللزوميات والفصول والغايات والأيك والغصون » مما عرفناه وحرمنا اياه جهل الجاهلين ، وضلال الصليبيين ، وتترية التتر ، وحوادث الايام [٤] ، وما كانت

(١) هويه : محبوبه ، معشوقه

(٢) هذه نسبة إلى اسم الله عز وعلا إلا أنه وقع فيها تغيير من تغييرات النسب واقتضاب صيغة ونظيرها الرجولية في النسبة إلى الرجل والقياس ألهية ورجلية « الفائق » .

(٣) نقد « المهول » في « تكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة » و « ذيل الفصيح » و « شفاء الغليل » وذكرها « المخصص » ج ١٢ ص ١٢٤ وقال : قد جاء في الشعر الفصيح ورواه ، ونقل مقاله وروايته « اللسان والتاج » وفي الأساس : مكان مهول فيه هول . وفي « مجمع الأمثال » : « لا يقرأ إلا آية العذاب وكتب الصواعق » ، قال الميداني : يضرب للمهول .

(٤) في كتاب « أوج التحري عن حيثية أبي العلاء المعري » وفي كتاب « إحكام صنعة الكلام » قطع من كتب للشيخ مفقودة تضاعف التحسر على ماضاع

و « أوج التحري » حققه وصححه الأستاذ الأمامي ابراهيم الكيلاني وكتب مقدمته العلامة الأستاذ محمد سليم الجندي وطبعه المعهد الفرنسي الذي يديره في هذا الوقت العلامة الأستاذ هنري لاووست

وأما كتاب (إحكام صنعة الكلام) فهو — كما قلت قبل — مخطوطة في خزانة العلامة الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب الصمادحي . وقد أفضل هذا العلامة الكريم المفضال على الأدب بنشر طائفة من « الأحكام » في مصنف « تعريف القدماء بأبي العلاء » الذي جمعه وحققه لجنة من العلماء الأساتذة : مصطفى السقا ، عبد الرحيم محمود ، عبد السلام هارون ، ابراهيم الابياري ، حامد عبد المجيد باشراف العلامة الدكتور طه حسين .

يقول صاحب (أحكام صنعة الكلام) بعد أن أورد أربع شذرات من كتاب (القائف) للشيخ :

(... ولأبي العلاء في كتاب (القائف) احسان مشهور ، وابداع كثير موفور . وهو أكثر من كتاب « كليلة ودمنة » ورقا ، وأفسح طلقا ، واطيب شميما وعبقا ... »

قال صاحب « أوج التحري » : « ولأبي العلاء ديوان شعر جمعه في الألفاظ » وروى مقاطيع منه ثم قال : « وكتاب الألفاظ كبير الحجم رتبه على جميع حروف الهجاء مشتمل على كل بحور الشعر وأعاريضه وضروبه » .

(١) في حديث ابن مسعود : احرثوا هذا القرآن وفي (الأساس) : وحرثت القرآن أطلت دراسته وتدبره .

(٢) مقتبسة من البديع الهمذاني ولشبل الدولة في الزمخشري :

زمخشري فاضل أعجبه زمخشره
كالبحر ان لم أره فقد أتاني خبره

(٣) ليس هذا الوصف « البليغ » للقول وحده كما ظن بعضهم . فخطأ ولم يصب . ففي الأساس : أبلغت إلى فلان فعلت به ما بلغ به الأذى والمكروه البليغ . ورواه التاج . وفي الفائق : الحذري : إن الله حرم الخمر فلا أمت فيها يعني أنه تحريم بليغ وفيه : الطوال البليغ في الطول ؛ والطوال — بتشديد الواو — أبلغ منه . وفيه خطب بالغ — بكسر الباء وفتحها وسكون اللام — أي بليغ وفي الكشاف : « المتين » الشديد القوة ، والمعنى في وصفه بالقوة والمتانة أنه القادر البليغ الاقتدار ، وفيه في تفسير . « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم » ، ومثل ذلك التزيين البليغ .

العربية ازدادت ثروة بباهرات عبقريات تباهت بها ، وبلغت غيرها من اللغات . وإذا تُحُصِّن في العلم والأدب تكاف الضعفاء العاجزين حين يتكلفون ، فتكافُ العباقرة القادرين يجل عن كل تعييب أو تهجين

* * *

حرث أبو العلاء القرآن حرثاً [١] عجباً ، وسيط هواه بلحمه ودمه ، واستهداه فهداه ، وذهن أو أدرك من إلهية (الكتاب) وسماويته ومن عربيته الناصعة الصافية ذات الإعجاز ، وبلاغته الخارقة العادة ما أدركه الفصحاء البلغاء من العرب في عهد النبي أو كاد يدرك ذلك . ولا تستقلن هذه الكيدودة . ومصنفُ الشيخ (تضمين الآي) « وهو إن لم تره فقد سمعنا خبره [٢] » يبين أنه بلغ في علم (الكتاب) المبالغ — كما يقول الزمخشري — ولا يُضمَّنُ مثل ذلك التضمين الفائق البديع إلا من خرّجه (القرآن) هذا التخريج العظيم البليغ [٣]

« ومن يهد الله فهو المهتدى »

بتصر الكتاب الإلهي المحمدى (أحمد بن عبد الله بن سليمان) بعجائبه وآياته فاستيقن واستبصر ، وارتوى الشيخ من كوثر البلاغة القرآنية فأزهر الكلام العلائى ونوّر

نوّر القرآن قولاً فعلا وسما صاحبه فى القائلين

إنما القرآن هَدْىُ الناطقين ، إنما القرآن نور العالمين

غثّ قول لم يهذبه (الكتاب)

والقرآن ، القرآن ذلكم الكتاب العجيب المبين ، إنه يراه نابغة الأوربيين الأديب العبقرى العظيم (جان ولفغنغ غوت) قد أعطي فيه كل مقام حقه ، وأخذ كل معنى من مقاصده لفظه ، كما يراه قوياً ، عظيماً ، سامياً ، متعالياً ، رائعاً ، مهيباً قد خرق العادة ، فلا غرو أن يبلغ أثره فى العالم — كما قال — حيث بلغ .

ألا إن القرآن فى الكلام ، مثل محمد فى الأنام . فإن وجدت لمحمد خطيراً[1] ، ألفيت للقرآن نظيراً

« قل : لئن اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً »

دعاكم إلى خير الأمور محمد ولبس الموالى فى القنا كالسوافل

حداكم على تعظيم من خلق الضحى وشهب الدجى من طالعات وآفل

وألزمكم ما ليس يعجز حمله أخا الضعف من فرض له ونوافل

وحث على تطهير جسم وملبس وعاقب فى قذف النساء الغوافل

وحرم خمراً خلت ألباب شربها من الطيش ألباب النعام الجوافل

فصلى عليه الله ما ذرّ شارق وما فات مسكاذكره فى المحافل[1]

* * *

أبو العلاء « هو جوهرة جاءت إلى الدنيا وذهبت »[2] .

(١) خطير الشيء مثله « المخصص » وفى اللسان : فلان ليس له خطير أى ليس نظير ، وهذا خطير لهذا أى مثل له فى القدر ، ولا يقال للدون إلا للشيء السرى .

(١) أبو العلاء .

(٢) قال الصفدى فى « نكت الهميان فى نكت العميان » :
« حكى لى عن الشيخ كمال الدين بن الزملكانى أنه قال فى حقه هو جوهرة الخ » .
وفى عينية أبي الفتح بن أبي حصينة المعرى فى رثاء الشيخ :
تتصرم الدنيا ، ويأتى بعده أمم ، وأنت بمثله لا تسمع !

حكم قراقوش

تأليف

الدكتور عبد اللطيف حمزة

المدرس بكلية الآداب . جامعة فؤاد الأول

أول بحث تاريخى فى إنصاف بهاء الدين قراقوش وزير صلاح الدين الأيوبي وكتاب الفاشوش لابن دمّاتى ، ومعه بحث موضوعه السخرية فى الأدب ، وتحقيق لرسائل الوهرانى ، ثم مقارنة بين الأدب المصرى والأدبين العربى والأوربى

الثمن ١٨ قرشاً عدا أجرة البريد

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

٢ شارع الشيخ محمد عبده بجوار الأزهر

تليفون ٥١٣٢٢ — ص . ب الغورية رقم ٧

أكبر المكاتب العربية وأشهرها

بما أعظم استعداد لنشر المؤلفات

الحديثة والكتب القديمة . . . .